موقع النار من الديانات والعقائد في كتاب "الحيوان" للجاحظ

د. يوسف زردة*

(تاريخ الإيداع 7 / 4 / 2021. قبل للنشر في 19 / 5 / 2021)

□ ملخّص □

حاولنا في هذا البحث تسليطَ الضوء على غاية الجاحظ من الحديث عن النار بعامّة، وعلى موقعها من العقائد والديانات بخاصّة، فتلمّسنا دوافعَه إلى الاهتمام بهذا الموضوع، في كتابه "الحيوان" معتمدين في ذلك على أقوال الجاحظ نفسه في تضاعيف الكتاب، لا على أسبابٍ مُتَوَقَّعَةٍ أو مُسْتَنْبَطَةٍ، وبعد ذلك أشرنا إلى أنواع النيران التي تحدّث عنها الجاحظ، من نيران ماديّةٍ طبيعيّةٍ، امتنَّ الله بها على الخلقِ ليستعينوا بها على كثيرٍ من شؤون حياتهم اليوميّة، ثم تحدّثنا عن نيرانٍ أخرى مجازيّةٍ عظّمها الإسلامُ، ونوَّه بذكرها القرآن، كنار جهنَّم، والنار التي كانت برداً وسلاماً على سيّدنا إبراهيمَ، وتلك التي تجلّى الله فيها لسيّدنا موسى على جبل الطّور، ونار بني إسرائيلَ، ونار "الحرّتين" التي كانت على خالدٍ بن سنانٍ العبسيِّ كما كانت على سيّدنا إبراهيمَ؛ برداً وسلاماً.

وقد سلّطنا الضوء في هذا البحث أيضاً على موقع النار من الديانة المجوسيّة؛ بوصفها الديانةَ الوحيدةَ التي لم تعترف بالنار المجازيّة، ولم تعرف من النيران غيرَ النار الماديّة أو العاديّة، التي قدّستها، أو ربطتها بالمُقدّسِ المجوسيِّ، فاختلفتْ بذلك عن الديانة الإسلاميّة، التي لم ترَ في النار الماديّة العاديّة غيرَ مِنّةٍ من الله، جليلةِ النَّفْع، قليلة الكُلْفة. ثمَّ ختمنا القولَ بمحاولة تبيّنِ طريقة الجاحظ في معالجة المفردات المعرفيّة التي استعان بها في حديثه عن النار، فأشرنا إلى ترجُّحه في ذلك بين التعقيب على بعض المفردات من آيات قرآنيّة، وأحاديث نبويّة بكلمات معدودات وحسب، واتخاذه ـ أحياناً ـ من بعض هذه المفردات منطلقاً، أو ذريعةً للاستطراد إلى الخوض في مسائل بلاغيّة، أو لغويّة، أو غيرها.

الكلمات المفتاحيّة: ـ النار الماديّة، النار المجازيّة، المفردات المعرفيّة، المجوسيّة.

*أستاذ مساعد – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة –جامعة تشرين. اللاذقيّة ـ سورية.

The fire of religions and beliefs in the book "the animal" of the mazhars

Dr. Youssef Zardeh*

(Received 7 / 4 / 2021. Accepted 19 / 5 / 2021)

□ ABSTRACT □

In this research, we tried to shed light on the great importance of talking about fire in general, and about the fire of beliefs and religions in particular, and we touched on his motives to care for this subject in a book he called "animal". Based on the words of the same preacher in the book's reworking, not on expected or disheartening reasons, and then we referred to the kinds of fires that the preacher talked about, from normal physical fires, by which God had perished on creation, so that they could use them on many of their daily life affairs. We then talked about other metaphorical fires, the greatest of which is Islam, and mentioned in the Qur'an, KunarJhnam, the fire that was cold and peaceful on our Lord Abraham, and the fire that Allah revealed to our Lord Moses on the Mount of the Tur, the fire of the Israelites, and the fire of "two Els" that was on Khaled Bin Sinan Al-Asan
We have also highlighted this search on the fire site of the Hindu religion; As the only religion that did not recognize metaphorical fire, and did not know of the physical or ordinary fire that it had set up, or linked to the sacred, it differed from the Islamic religion, which did not see in the normal material fire unobbed by God, Jalila al-Jushayeh, which was of low cost. We concluded by trying to show the way of preaching the cognitive vocabulary that he used in his talk about fire, and we referred to his swing between commenting on some vocabulary terms from Qur'anic verses, and prophetic talk only in the words of a few words, and taking it - sometimes - from some of these words as a starting point. Or as a pretext for going on to engage in matters of rhetoric or language.

Key words: Physical fire, metaphorical fire, cognitive vocabulary, metaphorical fire.

* **Associate Professor, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University. Latakia – Syria.**

مقدّمة

قد لا يُخَيّلُ لقارىءٍ أو باحثٍ راغبٍ في معرفة شيء ذي بالٍ عن موضوع النار أنَّ ضالتَهُ هي في كتابٍ عُنْوِنَ له بـ (الحيوان)، ولكنه إنْ كان ممّن قرأ للجاحظ لن يفاجئه أن يجدَ هذه الضالةَ في كتاب ألّفه أديب العلماء وعالم الأدباء، أبو عثمان، عمرو بن بحر، وبنى مادته المعرفية، بل موادّه المعرفية، على قاعدة أو منهج "الاستطراد" الذي بناهُ على قاعدة الانتقال بالقارىء من مادة معرفية إلى غيرها، ومن معنىً وموضوع إلى معنىً وموضوع آخرَين متصلين ببعضهما اتصالاً وثيقاً تارةً، وغيرَ وثيق أخرى[1].

لقد حاول كثير ممن قرؤوا في كتب الجاحظ، أن يجدوا تفسيراً لهذا التنوع المعرفي في كتبه بعامة، وكتابه "الحيوان" بخاصة، وعدم تصنيفهِ هذه المعارفَ في أبواب وفصول، فأرجع بعضهم ذلك إلى غزارة معارفه إلى درجةٍ بات عاجزاً معها عن السيطرة عليها أثناء عكوفه على التأليف[2]، وأرجعها بعضهم الآخر إلى طريقته الفوضويّة في التأليف[3]، التي ربمّا كانت انعكاساً لطريقته في العيش، وجنوحه فيه إلى الانعتاق من كلِّ ما من شأنه أن يُغِلَّ لسانَه أو قلمَه[4].

وبغضّ النظر عن سبب، أو أسباب انعدام الوحدة المعرفية الموضوعيّة، أو اللاتجانس المعرفي في كتاب "الحيوان" للجاحظ فقد استحال موضوعُ النار على يديه منطلقاً لموادَّ معرفية مختلفة غير متجانسة، وكثيرةٍ إلى درجة تحسبها معها أنها غير متناهية، أو منفتحةٌ على ما يمكن ألا ينتهي من معارف، يتصل بعضها بالنار الماديّة الطبيعيّة المُتَعارَف عليها بين الناس، التي يُستعانُ بها على كثير من شؤون الحياة، ويتصل بعضها الآخر بالنار الخُلبيّة التي يسمونها ناراً وليست بنارٍ تُضْرَمُ، تارةً ثانية، ويتصل بعضها بالديانات والعقائد تارة ثالثة، منها ما هو معنويٌّ مجازي، كنار جهنم التي توعد الله بها الكافرين، ومنها ما هو ماديٌّ كتلك التي تُوقَدُ في البيوت التي اتخذها المجوس معابدَ لهم. ويتحدّث بعضها عن مكانتها عند الأمم المختلفة، وما يستتبع ذلك من طقوس وممارسات. وقد استعان الجاحظ على توليد تلك المواد المعرفية بالشعر تارةً، وبالقرآن أخرى، وبالحديث النبوي تارة ثالثة، وبغير ذلك من أقوالٍ للعلماء والفلاسفة وغيرهم، وتعليقاتٍ على الكثير من هذه الشواهد مختلفةٍ من لغويّة وبلاغيةٍ وغيرها، ، حتى ليخيَّلَ للقارىء أنّ الجاحظ قد تحرّى جميع المصادر المعرفية المتصلة بموضوع النار، ثم جعل يوزّع هذه المعارف (الناريّة) إذا جاز هذا التعبير في المواضع التي رآها صالحة لها من الكتاب.

أهمية البحث وأهدافه

أهميَّة البحث

لقد درج الدارسون على تناول، أو مقاربةِ كتب التراث العربي، ولا سيما الأدبية منها، مقاربةً وصفيّةً، تُعْنَى بوصف الكتاب وصفاً عامّاً، ينطوي على حديث عن المضمون المعرفي للكتاب، والمنهج الذي اعتمَده المؤلف في عرض هذا المضمون، ولمْ نجدْ منهم مَنْ خَصّ مادةً معرفيّةً بعينها في كتاب بعينه ببحثٍ مستقلٍّ؛ فكلٌّ من تحدَّث عن الجاحظ ـ

---

[1] : مصادر التراث العربي في الأدب واللغة والتراجم، د يوسف زردة: 110 . وانظر أيضاً ص: 121 من المصدر نفسه.

[2] : المصادر الأدبية واللغويّة عند العرب، د عز الدين إسماعيل: 141.

[3] : ضحى الإسلام، د أحمد أمين: 1/ 392. وانظر أيضاً حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب للدكتور أمجد الطرابلسي: 130

4:استدعى المأمون الجاحظ إلى قصر الخلافة، وأوكل إليه مهمَّة رئاسة الديوان أو الكتّاب، فمكث في هذا المنصب ثلاثة أيام فقط، استعفاه بعدها منه فأعفاه، وعاد إلى البصرة ليمارس هوايته في الكتابة والتأليف. انظر لذلك كتاب المعتزلة والفكر الحر، د عادل العوا: 216.

مثلاً ـ تحدَّث عنه بوصفه أديباً بقدر ما هو عالمٌ، وعالماً بقدرٍ ما هو أديبٌ، غزيرَ المعارف، واسعَ الاطلاع، دقيقَ الملاحظة، اعتمد في كتبه، ولاسيما في الشهيرين منها:" الحيوان" و "البيان والتبيين" منهجَ الاستطراد القائم على الانتقال بالقارىء من فكرة إلى غيرها، ومن معنىً إلى سواه، بسبب تارةً، وبغير سبب أخرى. وربما جاوز بعضهم ذلك إلى محاولة تفسير اعتماد الجاحظ هذا المنهج.

أمّا هذا البحثُ فقد حاول تسليطَ الضوءَ على موضوع بعينه من بين الموضوعات الكثيرة التي عرض لها الجاحظ في " حيوانه"، ومفرداتٍ معرفيّةٍ محدّدةٍ متَّصلةٍ بهذا الموضوع، نائينَ بذلك بأنفسنا عن الحديث العامِّ عن الجاحظ أو كتبه أو منهجه، وسالكين إلى غايتنا غيرَ الطريق التي عَبَّدَتْها وزَلَّلتها أقلام الدارسين من قبلُ.

منهج البحث:

بدأنا الحديث في هذا الموضوع عن باعث الجاحظ على الاهتمام بموضوع النار في كتابه "الحيوان"، مُلتمسينَ ذلك في أقوال الجاحظ نفسه في تضاعيف الكتاب، فأثبتنا من أقواله ما يدلُّ على سبب عنايته بموضوع النار، ثم تحدّثنا عن كيفيّة تشظّي هذا الموضوع على يديه ـ كما الكثير من الموضوعات التي يتناولها ـ إلى وحْدات أو مفرداتٍ معرفيّة مختلفة، يتصل بعضها بموقع النار من أصحاب العقائد والديانات غير الإسلاميّة، فأشرنا إلى أبرز مظاهر أو تجلّيات تعظيم النار، والإعلاء من شأنها عند أصحاب هذه العقائد، ثم انتقلنا من ذلك إلى الحديث عن النار في الديانة المجوسيّة، التي قدَّس أتباعُها النار، وقدّموا عنصرَها على سائر العناصر الأخرى التي تشكّل قَوامَ العالم أو الكون، من ماءٍ، وأرضٍ، وهواءٍ، وعَدّوا انطفاءَها نذيرَ شؤمٍ، كما تحدّثنا ـ في أثناء ذلك ـ عن سبب توعّد "زرادشت" العُصاةَ من المجوس بالبردِ والثلج لا بالنار التي اتصلت عندهم بالمقدّس الديني، وذكرنا رأيَهم في سبب توعّد الرسول العربي العُصاةَ والفُجّارَ بالنار لا بالبرد، مُختلِفينَ في ذلك مع المجوس، ورَدَّ الجاحظ عليهم في ذلك.

وبعد حديثنا عن النار في المجوسيّة، انتقلنا إلى الحديث عنها في الديانة الإسلاميّة، فأشرنا إلى تمييز الإسلام بين النار الماديّة الطبيعيّة العاديّة، التي لا تتصل بالمقدّس أو المُعظَّم، ولا تعدو كونَها مَرفَقاً من مرافق الحياة، امتنَّ الله به على الخلق، جليلَ الفائدة، محدودَ الكُلفة، والنار المجازيّة التي عظّمها الإسلام، كنار جهنّم، ونار بني إسرائيل، ونار كُلٍّ من إبراهيمَ وموسى عليهما السلام، ونار "الحرّتين". وإذا ما فرغنا من ذلك سلّطنا الضوء على طريقة الجاحظ في معالجة هذه النيران المختلفة، المجازيِّ التشبيهيِّ منها والعاديِّ الطبيعيِّ، المُقدّس منها، وغير المُقدّس، أو المنظور إليه بوصفه مَرفَقاً من مرافق الحياة وحسبُ.

غاية الجاحظ من الحديث عن النار في "الحيوان":

لا تختلف غاية الجاحظ من حديثه عن النار في كتابه "الحيوان" عن غايته من الحديث أو الخوض في كثير من موضوعات الكتاب، المتشعّبة والكثيرة إلى درجة ربما تأبَّتْ معها على الحصر. وتتلخّص هذه الغاية في حفز القارىء على التأمل والتفكر في مخلوقات الله، والدلالة على حكمته في خلقه، ودلالة كلٍّ من مخلوقاته ـ ومن بينها النار ـ على عظمته تعالى. وقد أشار الجاحظ إشارة واضحة إلى قصده تحقيقَ هذه الغاية من حديثه عن النار، كما عن غيرها من موضوعات الكتاب، فقال: "وقد ذكرنا جملةً من القول في النار، وإنْ كان ذلك لا يدخل في باب القول في أصناف الحيوان، فقد يرجع إليها من وجوهٍ كريمةٍ نافعةِ الذكر، باعثةٍ على الفكر، وقد يعرض من القول فيها ما عسى أن يكون

أنفعَ لقارئ هذا الكتاب من باب القول في الفيل، والزّندبيل[5]، وفي القرد والخنزير، وفي الدُّبِّ والذِّئب، والضَّبّ والضَّبُع، وفي السِّمْع والعِسْبار[6]... ولذلك استجزنا أن نقول في باب النار ما قلنا[7].....".

وأيّاً ما كان باعث الجاحظ على الخوض في موضوع النار، فقد تشظّى هذا الموضوع على يديه تشظّياً تجلّى في نثر الجاحظ في تضاعيف الكتاب مفرداتٍ معرفيةً كثيرة، يتصلُ بعضها بمناسبات إضرام النيران عند العرب، وعلاقة النار بكل من هذه المناسبات على حِدة، مستشهداً على ذلك بما يؤكده من أشعارٍ، وأرجازٍ، وأخبارٍ، وأقوالٍ مأثورة عن الأعراب، وسوى ذلك من مصادر المعرفة. هذا على صعيد النار الماديّة، أمّا على صعيد النار المعنوية المجازيّة، فقد تحدّث عن المحمود منها والمذموم، وتحدّث عن مواقعها من أتباع الديانات والمذاهب، مستشهداً على ذلك بما يؤكد ما يذهب إليه من آياتٍ قرآنيّة، وأحاديثَ نبوية، وأقوالٍ للعلماء في هذا الشأن.

وبسبب تشظّي المفردات المعرفية المتصلة بموضوع النار في كتاب "الحيوان" تشظّياً جعل بعض هذه المفردات متصلاً بعادات الشعوب وأعرافها، وبعضَها الآخر متصلاً بجوهر النار وهيولاها من جهة طبيعتها وموقعها من الأشياء في الطبيعة أو الكون، وجعل بعضها متصلاً بنظرة أصحاب الديانات إليها، وموقعها من عقائدهم، فقد رأينا أن نُفرد هذا البحث للحديث عن موقع النار في الديانات والعقائد وحسبُ؛ لأنَّ الحديث عن جميع أنواع النيران التي أتى الجاحظ على ذكرها في "الحيوان" لا يستوعبه بحثٌ محدود عدد الصفحات، يُتَقدَّم به لإحدى المجلات العلميّة.

النار بالنسبة إلى أصحاب العقائد والديانات غير الإسلاميّة:

أشار الجاحظ في كتابه "الحيوان" إلى أنَّ الناس كافةً أُولِعُوا بتعظيم النّار، وأَعْلوا من شأنها، وقد بالغ الكثيرون منهم في ذلك التعظيم حتى اتخذوها معبوداً يَخِرُّونَ له رُكَّعاً وسجودا.

وقد ماز الجاحظ بين نوعين للنار: أولاهما علويّة سماوية مجازيةٌ تتمثّل في الشمس والقمر، وسواهما من الكواكب، وثانيتهما سفليّة أرضيّة تتمثل في النار الماديّة أو العاديّة الطبيعيّة المعروفة. قال:" أمّا النار العُلْوية، كالشمس والكواكب، فقد عُبِدَت البتّةَ" بآية قوله تعالى: وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ[8]". ثم ماز الجاحظ بين نظرة هؤلاء الذين سجدوا للشمس من دون الله، ونظرة أو موقف الأنبياء من الشمس والكواكب؛ فالأنبياء ـ بحسب الجاحظ ـ تَعبَّدوا بالشمس، ولم يعبدوها لذاتها، كما هو حال العامّة من الناس، الذين ظنّوا بالأنبياء عبادةَ الكواكب، فعبدوها اقتداءً وتأسّياً منهم بهؤلاء الأنبياء، فأخطؤوا بذلك، وضلّوا سواء السبيل. قال الجاحظ: "وقد يجيء في الأثر وفي سنّة بعض الأنبياء، تعظيمُها على جهة التعبّد والمحنة، وعلى إيجاب الشكر على النّعمة بها وفيها. فيغلط لذلك كثير من النّاس، فيجوزون الحدّ[9]"؛ أي يظنون أنَّ الأنبياء قد عبدوها لذاتها، ولم يتعبّدوا بها، فعبد هؤلاء الناسُ تلك الكواكبَ اقتداءاً منهم بالأنبياء الذين نظروا إليها ـ فيما نرى ـ نظرةَ الوثنيين، أو مَنْ سُمّوا بالمشركين إلى الأصنام؛ فمن المعروف أنَّ الوثنيين، أو مَنْ سُمُّوا بالمشركين قد تقرّبوا إلى الله بالأصنام، ولم يعبدوا الأصنامَ لذاتها، إنما تزلّفوا إلى الله بها، على حدّ تعبير القرآن الكريم نفسه. قال تعالى: "ألا لله الدينُ الخالصُ، والذين اتُّخِذُوا من دونه أولياءَ، ما نعبدُهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله

---

[5]:الزندبيل: كبير الفيلة، حياة الحيوان الكبرى للدُّميري:15/2 .

[6]:السِّمْعُ: ولدُ الذئب من الضّبع، المصدر السابق: 37/2. والعِسْبار: ولد الضّبع من الذئب، جَمْعُه عسابر: 158/2. من المصدر نفسه.

[7]: الحيوان للجاحظ:148/5ـ 149.

[8]: النمل/24

[9]: الحيوان479/4

زُلْفى[10]". وربما كان لافتاً للنظر ألا يشيرَ الجاحظ إلى وجه الشَّبه بين نظرة الأنبياء إلى الشمس والكواكبِ بوصفها وسيلتهم إلى عبادة الله، ونظرةِ المشركينَ أو الوثنيين إلى الأصنام بوصفها وسيلتهم أيضاً إلى عبادة الله، علماً بأنَّ كليهما قد أراد بسلوكه وجهَ الله وحسبُ، ولم يُشركوا بالله. وقد كانت إشارة الوثنيين إلى ذلك إشارةً صريحةً وواضحةً، أمّا الأنبياء فلم يشيروا إلى مثل ذلك، على الأقلِّ بحسب ما نقل الجاحظ عنهم.

وعلى أيّة حال، فقد تجلّى تعظيم بعضٍ من أصحاب الديانات والعقائد النارَ في مظاهر مختلفة، أبرزها مظهران اثنان، أولُهما الإبقاءُ على النار مشتعلةً في بيوت العبادات، وثانيهما المبالغةُ في الإنفاق على بيوت النار، والقائمين على خدمتها.

1:الإبقاءُ على النار مشتعلة في بيوت العبادات:

لقد أراد القائمون على شؤون العقائد والديانات التي سبقت الإسلام من نصرانيّة ويهوديّة ومجوسيّة، أن يميزوا بيوتَ العبادة من غيرها من البيوت الأخرى، فزعموا أنَّ الله طلب إليهم ألا يطفئوا النيران من بيوته. قال الجاحظ: ويزعم أهلُ الكتاب أنّ الله أوصاهم بألا يُخْلوا بيوته من النار، إذ قال لهم: "لا تطفئوا النّيران من بيوتي". فلذلك لا تجد الكنائسَ والبِيَعَ، وبيوتَ العبادات، إلّا وهي لا تخلو من نار أبداً، ليلاً ولا نهاراً[11]. وهذا مظهرٌ من مظاهر تعظيم النار، والإعلاء من شأنها لدى أصحاب هذه العقائد.

2: المبالغة في الإنفاق على بيوت النار والقائمين عليها:

إنَّ الإبقاء على النار مشتعلةً في بيوت العبادة قاد إلى مظهر آخرَ عكس عنايتهم الفائقةَ بها، وإعلاءهم من شأنها، ذلك أنَّ الإبقاءَ عليها مشتعلةً اضَّطرهم إلى اتخاذ بيوت خاصّة بها، وسَدَنةٍ يشرفون على هذه البيوت والنار المُشتعلة دائماً فيها. قال الجاحظ: لقد عُنوا بها حتّى اتُّخِذت للنّيران البيوتُ والسَّدَنَةُ، ووقفوا عليها الغلّاتِ الكثيرةَ[12].

وإذا غادرنا المفردات المعرفيّة التي اشتمل عليها كتاب "الحيوان" والتي تُنْبي عن موقع النار من العقائد والديانات بعامّة، وحاولنا تبيّنَ موقعها من ديانات وعقائدَ بعينها، ربما أمكننا أن نقف على مفردات معرفية متصلة بالنار، من شأنها تسليطُ الضوء على أهميّة النار ومكانتها في كلٍّ من الديانتين: المجوسيّة والإسلاميّة على وجه الخصوص. وإليك فيما يأتي من هذه المفردات، أو الموادّ المعرفيّة ما يجعلك على بيّنة من موقع النار في الديانة المجوسيّة أولاً، والإسلاميّة ثانياً.

النار في الديانة المجوسيّة:

ذكر الجاحظ أنَّ صاحبَ المجوس "زرادشت" هو أول مجوسي عظَّم النار وأمر بإحيائها، ونهى عن إطفائها، ونهى الحائضَ عن مسِّها، أو الاقترابِ منها[13]، وقدَّمَ عنصرَ النار على غيره من العناصر التي تشكّل قوامَ العالم، وهذه العناصر هي ـ بالإضافة إلى النار ـ الماءُ، والأرضُ، والهواءُ. قال الجاحظ:" والمجوسُ تقدّم النارَ في التعظيم على الماء، وتقدّم الماءَ في التعظيم على الأرض، ولا تكادُ تذكر الهواءَ[14]".

---

[10]: الزُّمر/3

[11]:الحيوان 479/4

[12]:الحيوان 479/4

[13]:الحيوان 66/5

[14]:الحيوان 481/4

وقد بلغ من أهميّة النار في نفوس المجوس وقلوبهم أنْ عَدُّوا قدرةَ عدوّهم على إطفاء نارٍ لهم نذيرَ شؤمٍ عليهم، وإيذاناً لهم بالهزيمة المُحقّقة، ولذلك فقد كان خصومُ المجوس أو أعداؤهم ـ إذا أرادوا قتالهم ـ يبدؤون بإلحاق الهزيمة النفسيّة بهم أولاً، فيعمدون ـ بادىء ذي بدء ـ إلى إحدى نيراهم فيطفئونها، فإذا انطفأتْ تقهقر المجوسُ، ولم يثبتوا أمام أعدائهم، لأنَّ انطفاءَ النار فتَّ في عَضُدهم، وألانَ شوكَتهم. كيف لا؟ وهذه النار التي كانت مشتعلة إنْ هيَ إلاّ بمنزلة الراية التي تجمع صفوفَ المقاتلين حولها، فإذا سقطت تفرّق شملُهم، وانتشروا في كلِّ اتجاه. وقد دلَّ الجاحظ على ذلك في "الحيوان" فذكر أنّ زياداً بعث عبدَ الله بنَ أبي بكرة، وأمره أن يطفئ نيران المجوس، فأراد عبدُ الله أن يبدأ بنار "جَوْر" فيطفئها، فأشاروا عليه بأن يبدأ بنار "الكاريان" لأنها من أعظم نيرانهم، ولها في نفوسهم مكانة كبيرة، فإنْ هي انطفأت تقهقروا وانهزموا. قال: فولّى بنُ أبي بكرة وجهَهُ صوبَ "الكاريان" فتحصّن أهلها في القلعة. وكان فيهم رجل من الفرس معروفٌ بالقوّة والجبروت، يهابُهُ كلُّ مَنْ عرفه، ولا يقدر عليه أحد، وقد درج هذا الرجل على استعراض قوته كلَّ يومٍ، يخرج من منزله ويتمشّى قريباً منه جِيئةً وذهاباً استخفافاً بمَنْ حوله، فغمَّ ذلك عبدَ الله المُوكَلَةُ إليه مهمةُ إطفاء النار، فقال لرجاله: أليسَ فيكم مَنْ يكفيني هذا الرجل؟ فانبرى للقائه رجلٌ من عبد القيس، مقابلَ أربعة آلاف درهم يدفعونها له إنْ هو قدر عليه. قال: فلمّا كان الغدُ جعل الفارسيُّ يتمشّى أمام منزله ـ كعادته كلَّ يوم ـ فاعترضه الرجل العبديُّ، وأوثقه حتى لم يستطعْ حراكاً، فحمله على كتفيه، وجاء به حتّى أدخله الدّار وضرب به الأرض، فوثب عليه النّاس وقتلوه، فلما قُتل أعمل عبدُ الله السيفَ في رقاب الهرابذة المجوس، ومضى يطفىءُ نيرانهم الواحدة تلوَ الأخرى، حتّى بلغ سجستان[15].

عقاب الآخرة عند المجوس بالزمهرير والبرد لا بالنار:

ذهب علماء الكلام إلى أنَّ "زرادشت" وهو صاحب المجوس، لم يتوعّد الكفار بالنار؛ لأنَّ سكان البلاد الذين نزل فيهم، أو بُعِثَ إليهم، لم يكونوا إلى شيء أحوجَ منهم إلى النار، فهم سكان بلاد زمهريريةٍ، لا يعرفون إلا الأذى بالبرد والثلج والدّمَقِ[16]، ولا يضربون المثلَ بالقسوة والشّدّة إلا بالبردِ وما يتصل به؛ فإذا أراد الرجلُ منهم تهديدَ أحدهم بالعقوبة المُغلَّظةِ، توعّدَهُ بقوله له: إنْ فعلتَ كذا، أو عدْتَ إلى فعل كذا، لأنزعنّ ثيابك، ولأُقيمنّك في الريح، ولأُوقفنّك في الثلج. فلما رأى "زرادشت" موقعَ البرد منهم هذا الموقعَ، جعل الوعيدَ بتضاعفه، لأنه زاجرٌ لهم عما يكره، أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر[17]. وقد رأى الجاحظ في توعّدِ "زرادشت" أمَّتَه بالثلج دون النار، إقراراً واعترافاً منه بأنهُ بُعِثَ إلى أهل تلك الجبال دون غيرهم من الخلق حتى إذا قيل له: لمنْ أُرسلْتَ أو بُعِثْتَ أنتَ ؟ قال لأهل تلك البلاد الباردة، الذين لابدّ لهم من وعيد، ولا وعيد لهم إلا بالثلج، وما يستتبعه من برد قارسٍ وزمهرير، فلا يصحُّ وعيدُهم بالنار التي يتمنونها على الدّوام، ولم يعرفوا لها في حياتهم غيرَ الأثر الطّيّب، ولم يَمْسَسْهم منها سوءٌ البتّة. وهذا جهل من زرادشت ومن أتباعه كما قال الجاحظ.

رأيُ المجوس في سبب توعّد النبي العربي أمّته بالنار لا بالثلج:

رأى المجوس أنَّ النبي العربي إنما توعَّد الكافرين بالنار،لأنَّها ـ بالنسبة إلى سكان الجزيرة العربية ـ بمنزلة الزمهرير والثلج بالنسبة إلى سكان جبال "سيلان" الذين بُعِثَ إليهم "زرادشت"، وذهبوا إلى أنَّ النبي العربي لو بُعِثَ إلى مَنْ بُعِثَ

[15]:انظر القصّة في الحيوان، 4/479-481

[16] : الدمق: الثلج مع الريح يغشى الإنسان من كل اتجاه، حتى ربما قتل من يصيبه. تهذيب اللغة للأزهري،9/55.

[17]:الحيوان 5/67

إليهم "زرادشت"، لما توعّد الكفار بالنار، بل لما توعّدهم بغير ما توعّدهم به "زرادشت" نفسُه. وقد أراد المجوس بقولهم هذا أنَّ محمداً بُعِثَ للعرب دون غيرهم من الأمم، ولم يُرسلْه الله للناس كافةً كما يزعم المسلمون، مَثَلُه في ذلك مثل "زرادشت" الذي لم يُبعَثْ إلا لسكان البلاد التي كان فيها، ولم يرسله الله إلا لهم دون غيرهم.

وقد نصّب الجاحظ نفسه منافحاً عن العقيدة الإسلاميّة، وخصماً للمجوس في مقولتهم هذه، فقال: عارضني بعضُ المجوس، فقال: لعلّ صاحبَكم إنما توعّد أصحابه بالنار، لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دَمَقٍ، وإنما هي بلاد الحَرُور والوَهَج والسّموم، فكانت لذلك النار ـ وهي المكروهة لديهم ـ أزجرَ لهم. واعتقد هذا المجوسيُّ أنه قد بزّني وغلبني برأيه هذا، فقلت له: إن أكثر بلاد العرب موصوفةٌ بشدّة الحَرِّ في الصيف. وشدة البرد في الشتاء؛ لأنها بلاد صخور وجبال، والصّخْرُ يقبَل الحرَّ والبردَ، ولذلك سَمَّتِ الفرسُ العربَ والأعرابَ: "كَهْيان" والكَهْ بالفارسية هو الجبل. فمتى أحببتَ أن تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء وحرّها في الصيف، فانظر في أشعارهم، وكيف قسّموا ذلك، وكيف وضعوه لتعرف أن الحالتين سواء عندهم في الشدة[18].

ولم يكتفِ الجاحظ بتوهين زعم المجوس في سبب توعّد محمد عُصاةَ قومه بالنار، بل ذهب إلى تسفيه رأيهم في إمكانية الزجر والتوعّد بالبرد والثلج، ففنّد زعمهم، وذكر من الحجج ما يدحضه. وأبرز هذه الحجج التي أوردها الجاحظ للدلالة على عدم جواز توعُّد العُصاة والفُجَّار بالثلج:

1ـ إمكانيّةُ اتخاذ الثلج طعاماً وشراباً في كثيرٍ من الأحيان، والاستعانةُ به على كثير من شؤون الحياة، كالتخفيفِ من أثر الحَرّ الشديد على الإنسان، وطهيِ الطعام، وحفظِ الأطعمة والفاكهة، وإضاءةِ المصابيح، وسوى ذلك من حاجات أخرى كثيرة. ولذلك لا يصحُّ ـ عقلاً ـ توعُّدُ الإنسان بما يأكلهُ أو يشربه، أو يستعينُ به على كثير من شؤون حياته اليوميّة.

2ـ اتخاذُ الثلج ـ في كثير من الأحيان ـ دواءً لمعالجة بعض الأمراض، فكيف يُزجَرُ الإنسان بما يستعين به على التخفيف من آلامه وأوجاعه.

3ـ إمكانيّة قهر الثلج، والتّغلّبِ على أذاه أو أضراره بوسائلَ كثيرةٍ ومُتاحةٍ بيُسْرٍ وسهولة، كشربِ النبيذِ على سبيل المثال.

قال الجاحظ مُشيراً إلى عدم وجاهة التَّوعُّد بالثلج إذا قِيسَ بالنار:" والثلجُ لا يكْمُل لمُضادَّة النار، فكيف يبلغ مبلغَها؟ والثلجُ يُؤكَلُ ويُشرَبُ، ويُقضَمُ قَضْماً، ويُمزَجُ بالأشربة، ويُدفَنُ فيه الماءُ وكثيرٌ من الفواكه. وربما أخذ بعضُ المُتْرَفينَ القطعةَ منه ...، فيضعُها على رأسه ساعةً من نهار، يتبرّدُ بذلك. ولو أقام إنسان على قطعة من الثلج ساعةً من نهارٍ، لما خِيْفَ عليه المرضُ قطُّ. فلو كان المبالغةَ في التنفير والزجر أراد، وإليه قصدَ، لذَكَرَ ما هو في الحقيقة عند الأمم أشدُّ،... والثلج قد يُداوَى به بعضُ المرضى، ويتولَّدُ فيه الدُّودُ، وتخوضُه الحوافر، والأظلاف، والأخفاف، والأقدام، بالليل والنهار، في الأسفار. وفي أيام الصيد يَهُونُ على مَنْ شرِبَ خمسةَ أرطالِ نبيذٍ أن يعدوَ عليه خمسةَ أشواط[19]". وبالاستناد إلى تلك القرائن استدلَّ الجاحظ على عدم وجاهة الوعيد بالثلج أو ما يتصل به من برْدٍ أو دَمَقٍ أو زمهرير، وليس الأمر بالنسبة إلى النار كذلك.

---

[18]:المصدر السابق نفسه 69/5

[19]:الحيوان 68/5 .

النار في الديانة الإسلاميّة:

ربما استطاع الدارس في "حيوان" الجاحظ أن يميز بين نارين في الديانة الإسلاميّة: أُولاهما ماديّة طبيعيّة عاديّة، والأخرى مجازيّةٌ أُخرويّة. وقد كان لكلٍّ منهما موقعٌ في الديانة الإسلاميّة، كما كان للديانة الإسلاميّة موقفٌ من كلٍّ منهما أيضاً.

موقع النار الماديّة الطبيعيّة من الديانة الإسلاميّة:

لم تحظَ النار الماديّة الطبيعيّة في الديانة الإسلاميّة بما حظيت به من اهتمام وتعظيم بالغين في الديانة المجوسيّة، ذلك لأنها لا تتصل بالمقدَّس الإسلامي، فهي لا تعدو كونَها من بعض ما امتنَّ الله به على الخلق، ليستعينوا بها على ما تُفيدُ به من شؤون الحياة، من استجلابٍ للدفء إبّانَ الحاجة إليه، ومن إستعانةٍ بها على طهي الأطعمة، والإفادة من ضوئها في ظلمة لياليهم، وسوى ذلك من الحاجات الحياتيّة، ولذلك نُوِّهَ بها في الإسلام من جهةِ عظيم فائدتها للناس، وليس من جهة رمزيّتها، أو اتصالها بالمقدَّس، كما هو حالها في الديانة المجوسيّة.

فقد ذهب الجاحظ إلى أنَّ الله امتنَّ على الخلق بالنار، ونوّهَ بخلقها، وجعلِها في مُتناول الناس بأقلِّ كلفة، على الرغم من جليل ما يفيدونه منها. وقد تجلّى هذا التنويه الإلهيُّ بخلق النار في أكثر من آية قرآنيّة، منها قوله تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ[20]؟" وعقّب الجاحظ على تلك الآية بقوله : فإن كنتَ بهذا القول مؤمناً فتذكّر ما فيها من النعمة[21]. ثم استشهدَ على التنويه الإلهي بخلق النار، وتفضّله على البشر بها، بقوله تعالى:" الذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ[22]". فهذا التنويه بها من الله يدل دلالة قاطعةً على تعظيمه إياها. كيف لا؟ وهي ـ بحسب تعبير الجاحظ ـ من أعظم الماعون معونةً، وأخفّها مُؤْنةً؛ أي أنها من أبرز وأهمِّ ما يُعِينُ الإنسانَ على العيش من جهة، وهي ـ على الرغم من ذلك ـ لا تكلّفه شيئاً يستحق الذكر. قال الجاحظ معقّباً على الآية سالفة الذكر:" فجعلها(أي جعل النار) من أعظم الماعون معونةً، وأخفّها مؤونةً[23]".

ولأنها من أعظم الماعون بحسب التعبير الجاحظي، وعلى هذه الدرجة من الخطورة والأهميّة بالنسبة إلى الناس، فقد دعا الرسول العربي الناسَ إلى وجوب الحرص عليها، وعدم التبذير في استخدامها، والاكتفاءِ منها بما يؤدّي الغرضَ المَرجُوَّ منها وحسبُ. قال الجاحظ مشيراً إلى دعوة الرسول(ص) الناسَ إلى عدم تبديد النار أو هدرها، وعدم الإسرافِ أو التبذير فيها: "وكانت النار مُعَظّمةً عند بني إسرائيلَ، حيث جعلها الله تعالى تأكل القربانَ، وتدل على إخلاص المُتَقرِّب، وفساد نيَّةِ المدغل، وحيث قال الله لهم :"لا تطفئوا النّار من بيوتي". ولذلك لا تجد الكنائس والبِيَعَ أبداً إلا وفيها المصابيح تزهرُ، ليلاً ونهاراً، حتى نَسَخَ الإسلامُ ذلك وأمَرَنا بإطفاء النيرانِ، إلا بقدر الحاجة[24]".

ولم يقف حرص الإسلام على النار بعامّة، عند حدِّ الدعوة إلى إخماد ما لا حاجةَ للناس به منها، بل تخطّى ذلك إلى الزعمِ بوجوبِ إطفاء الناس نارَ المصابيح في بيوتهم، إذا هم أغلقوا أبوابها بعد العِشاء، وخلدوا للنوم؛ فتنتفي ـ إذ ذاك ـ الحاجةُ إلى ضوئها. قال الجاحظ: "حدّث الحسن بن ذكوان، عن شَهْرِ بن حَوْشَبَ قال: أمر رسول الله أن تحبسوا

---

[20]:الواقعة/71، 72.

[21]:الحيوان 464/4.

[22]:يس/80

[23]:الحيوان، 97/5

[24]:الحيوان 120/5 .

صبيانَكم عند فَحْمة العِشاء، وأن تُطفئوا المصابيح، ... وأن تُغلِقوا الأبواب". ثمّ أردف هذا الحديثَ بإثبات اعتراض أحدهم على الرسول بشأن طلبهِ منهم إطفاءَ نار المصابيح في بيوتهم أثناء النوم. قال الجاحظ معقّباً على الحديث السابق ذكرُه: فقام رجلٌ من الحاضرين فقال: يا رسول الله، إنه لا بدَّ لنا من المصابيح، للمرأة النُّفساء، وللمريض، وللحاجة تكون. قال: فقال الرسول: فلا بأسَ إذاً، فإنَّ المصباحَ مَطْرَدةٌ للشيطان، مَذَبّةٌ للهوامّ، مُدِلَّةٌ على اللصوص[25]". وربما كان حريّاً بالجاحظ ـ وهو من المشهورين في القدرة على الدفاع عن الشيء ونقيضه ـ أن يقفَ عند أَمْرِ الرسول بإطفاء المصابيح في البيوت أثناء نوم أهليها، ثمَّ تراجعه عن ذلك، وترخُّصه في الإبقاء عليها مشتعلةً، بعد أن بيَّن له أحدهم ضروبَ الحاجة إلى أضوائها في الليل.

موقع النيران المجازيّة من الديانة الإسلاميّة:

يستطيع الدارس في كتاب "الحيوان" للجاحظ أن يميز بين نارين مجازيّتين تشبيهيّتين، أولاهما تخصُّ الديانة الإسلاميّة نفسها، وأخرى تخصُّ عقائدَ ودياناتٍ غير إسلاميّة. أمّا التي تخصُّ الديانة الإسلاميّة فهي نار الآخرة، أو نار جهنّم التي عظّم الإسلام من شأنها، ونوَّهَ بأثرها في الحياة، بوصفها الأداةَ التي توعَّد الله بها العُصاةَ والفُجّارَ من خلقه، فكانت لذلك الأداةَ التي هابها هؤلاء العُصاةُ والفُجّارُ الذين ارتدعوا عن ارتكاب المعاصي والكبائر والجرائم خوفاً منها، وحَسْبُها ذلك فضلاً على الخلق، وأثراً طيّباً في الحياة. وأمّا مَنْ لم يردعْهُ الوعيدُ بها من هؤلاء العُصاة والفُجّار، فظلموا عباداً، وعاثوا في الأرض فساداً، فقد كانت نارُ جهنّم خيرَ ما يُنْتَقَمُ ويُقْتَصُّ منهم بسعيرها ولظاها الجهنّميين، لتشتفي بذلك صدورُ مَنْ ظُلِموا بغير حقّ. وقد ضمّن الجاحظ "حيوانه" جملةً من القرائن التي تدلُّ على عظمة هذه النار في الديانة الإسلاميّة، وعلوِّ شأنها. ومن أبرز هذه القرائن:

1ـ إضافة لفظ النار إلى الله:

ذهب الجاحظ إلى أنَّ الله قد عظّم من شأن كلِّ شيء أضافه إلى نفسه، والنار من بين تلك الأشياء التي أُضيفتْ إلى الله، فالمسلمون يقولون: دعه في نار الله وسقره، وفي غضب الله ولعنته، وسخط الله وغضبه، ويقولون أيضاً: بيت الله، وزوّار الله، وسماء الله، وعرش الله، وكتاب الله، ورحمة الله،...[26]الخ. ولمّا كانت النار من بين ما أضافه جلَّ وعلا إلى اسمه، كانت من جملة ما يُعَظِّمُ، ويُنَوَّهُ به.

2ـ انتقام الله بالنار من أعدائه في الآخرة:

جاء في "الحيوان": ومما عظَّم الله به شأنَ النار أنّها تنتقم في الآخرة من جميع أعدائه. وجعل الانتقام بها من اختصاص الله وحدَه دون غيره. قال الجاحظ: وليس يستوجبها (أي يستوجب النار) بشريٌ من بشريّ، ولا جنيّ من جنيّ بضغينة ولا ظلم، ولا جناية ولا عدوان، ولا يستوجبُ النار إلا بعداوة الله عزّ وجلّ وحدَهُ، وبها يشفي صدورَ أوليائه من أعدائهم في الآخرة[27]. وفي موضع آخر من الكتاب أيضاً، أشار الجاحظ إلى عدم جواز التعذيب بالنار من قِبَل كائنٍ مَنْ كان، إلا الله وحدَه. قال: وقد علمنا أنّ الله عذّب الأمم بالغرق، والرّياح، وبالحاصب[28]، والرّجم، وبالصّواعق، وبالخسف، والمسخ، وبالجوع، وبالنقص من الثمرات، ولم يبعث عليهم ناراً، كما بعث عليهم ماءً وريحاً وحجارةً. وإنما

[25]: **الحيوان 122/5 ـ 123 .**

[26]: **الحيوان 96/5ـ 97**

[27]: **الحيوان، 96/5.**

[28]: **الحاصب ريح شديدة محمّلة بالتراب والحصى. تهذيب اللغة للأزهري153/4.**

جعلها من عقاب الآخرة ، وعذاب العُقبى، ونهى أن يُحرَقَ بها شيءٌ من الهوامِّ. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تعذّبوا بعذاب الله". ثم عقّب الجاحظ على هذا الحديث بقوله: فقد عظّمها كما ترى، فتفهّمْ– رحمك الله– فقد أراد الله إفهامك[29].

3ـ زجر الخلق بها عن ارتكاب المعاصي والكبائر:

عدَّ الجاحظ هذه المهمّةَ التي تؤديها النار ممّا امتنَّ الله بها على الخلق؛ لأنه جعلها العصا الغليظةَ التي تردع بعضَ الأشرار من خلقه، عن ارتكاب المعاصي، والكبائر من جرائمَ وغيرها. ولا أدلَّ على تأدية النار ـ بحسب الجاحظ ـ هذه المهمّةَ الجليلةَ من قوله تعالى:" يُرْسَلُ عَلَيْكُما[30] شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ"[31]؛ أي لا تتحدّيا اللهَ. والمخاطب هنا أهل الثقلين، السماء والأرض. قال الجاحظ مُبيّناً وجهَ المنّة الإلهيّة بالنار على الخلق، بالاستناد إلى الآية سابقة الذكر: "وليس يريد أنّ إحراق الله العبدَ بالنار من آلائه ونعمائه. ولكنه رأى أنَّ الوعيد الصادق ـ إذا كان في غاية الزَّجر، عما يُطغيه ويُرديه ـ فهو من النِّعم السابغة والآلاء العظام. وكذلك نقول في خلق جهنم: إنها نعمة عظيمة، ومِنَّةٌ جليلة، إذا كان زاجراً عن نفسه ناهياً، وإلى الجنة داعياً. فأما الوقوع فيها فما يشكّ أنه البلاء العظيم.

وفي موضع آخرَ من كتاب "الحيوان" ينوّهُ الجاحظ مرّة أخرى بالدور الذي تلعبهُ النار في زجر الناس عن ارتكاب المعاصي، فيقول: ولو لم يكن فيها إلّا أنّ الله عزّ وجلّ قد جعلها الزاجرة عن المعاصي، لكان ذلك ممّا يزيد في قدرها، وفي نباهة ذكرها... قال تعالى: "نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ[32]". قال: فقف عند قوله "نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً" فإن كنت بهذا القول مؤمنا فتذكّر ما فيها من النعمة أولاً ثم آخراً، ثم توهّم مقادير النِّعَم وتصاريفها.

نار الديانات غير الإسلاميّة:

يستطيع الدارس في كتاب "الحيوان" للجاحظ الوقوفَ على أكثرَ من نارٍ عَقَديّةٍ غير إسلاميّة، أشار إليها الجاحظ مُنَوّهاً، ومُشيداً، ودالاً على وجه العَظمة فيها، وذلك في تضاعيف حديثه عن النار بعامة. ومن أبرز هذه النيران: نار بني إسرائيل، نار سيدنا إبراهيم، نار سيدنا موسى عليه السلام، نار الحَرّتين، أو نار خالد بن سنان العبسي. وقد كان القرآن الكريم مرجع الجاحظ في تبيّن وجه العظمة في أيٍّ من هذه النيران، فجعل يذكر الآية التي أشار الله فيها إلى هذه النار أو تلك، ثمّ يُعقّبُ عليها، أو يُقدّم لها ـ بإيجاز شديدٍ في معظم الأحيان ـ تعقيباً أو تقديماً يشير فيه إلى السبب الذي استحقَّت هذه النار به العظمةَ، وعُلُوَّ الشأن. وإليكَ من أقواله في هذه النيران ما يُجلّي ذلك:

نار بني إسرائيل:

ذهب الجاحظ إلى أنَّ من آيات عظمة هذه النار، وعُلُوِّ شأنها عند الله، أنه امتحن إخلاصَ بني إسرائيل، واطّلع على مبلغ صدق نواياهم بها؛ قال": فمن مواضعها التي عُظِّمت بها أنّ الله عزّ وجلّ جعلها لبني إسرائيل في موضع امتحان إخلاصهم، وتعرّف صدق نيّاتهم، فكانوا يتقرّبون بالقربان، فمن كان منهم مخلصاً نزلت نار من قبل السّماء حتّى تحيط به فتأكله، فإذا فعلت ذلك كان صاحب القربان مخلصاً في تقرّبه، ومتى لم يَرَوها تفعلُ ذلك، وبقي القربان على حاله،

---

[29]:الحيوان، 464/4.

[30]:أي على أهل السماء والأرض

[31]:الرحمن:35 ـ 36

[32] :الواقعة/73.

قضوا بأنّ صاحبه كان مدخولَ القلب فاسدَ النّية[33]. واستشهد الجاحظ على هذا المظهر من مظاهر عظمة النار عند الله بقوله: "ولذلك قال الله تعالى في كتابه: الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ. قل قد جاءكم رُسُلٌ مِنْ قَبْلي بالبَيّنات، وبالذي قلتم، فلمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين[34]" ثمَّ عقّبَ على تلك الآية بقوله:" والدليل على أنَّ ذلك قد كان معلوماً، قول الله(قد جاءكم رُسُلٌ من قبلي بالبيّنات، وبالذي قلتم) ثمَّ إنَّ الله ستر على عباده، وجعلَ بيان ذلك في الآخرة، وكان ذلك التّدبيرُ مصلحةَ ذلك الزّمان، ووفق طبائعهم وعللهم، وقد كان القوم من المعاندة والغباوة على مقدارٍ، لم يكن لينجعَ فيهم، ويكمل لمصلحتهم، إلا ما كان في هذا الوزن، فهذا باب من عظم شأن النّار في صدور النّاس[35].

نار موسى عليه السلام:

قال الجاحظ: وممّا زاد في تعظيم شأن النّار في صدور النّاس قول الله عزّ وجلّ: "وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى، إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً. فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً[36]". وقوله عزّ وجلّ في السياق ذاته أيضاً : إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ، أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا أتاها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ، وَمَنْ حَوْلَها، وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. ولم يعقّب الجاحظ على هذه الآيات الموسويّة ـ إذا جاز التعبير ـ بأكثر من كلمات معدودات. قال: وكان ذلك ممّا زاد في قدر النار في صدور الناس[37].

نار إبراهيم عليه السلام:

على غرار إشارته إلى النار الموسويّة أشار إلى النار الإبراهيميّة، بإيجاز واقتضاب شديدين؛ فعقّب بكلمات معدودات على الآيات التي تحدّث الله فيها عن إلقاء القوم سيّدَنا إبراهيمَ في النار، ثم قوله تعالى لها: كوني برداً وسلاماً عليه، فكانت كما قال، برداً وسلاماً. الأمر الذي رفع من شأنها في صدور القوم. قال: قال الله عزَّ وجلَّ:" قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ. قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ" ثمَّ قال:" قالوا حَرّقوهُ وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين" فلمّا قال الله عزَّ وجلَّ:" قلنا: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم" كان ذلك ممّا زاد في نباهة النّار، وقدرها في صدور النّاس.

نار الحَرّتين، أو نار خالد بن سنان العبسي:

في أثناء حديث الجاحظ عن نيران العرب، تحدّث عن نار عُرِفَتْ بنار الحرّتين نَشِبتْ ببلاد بني عبس، وتعاظَمَ خطرُها حتى هدَّدت بالفناء عدَّة قبائلَ، واستعصت على جميع محاولات الإخماد، فأرسلَ الله لها خالداً بن سنان العبسي، فاحتفر لها بئراً، وجعل يدفع بتلك النار في هذا البئر، حتى إذا غابت فيه، ألقى بنفسه في البئر، إمعاناً منه في إخماد النار، وبعثاً للطمأنينة في نفوس القوم الذين كادت هذه النار أن تأتي عليهم، فلمّا غاب عن أنظار القوم، وأطال المُكثَ في البئر حيثُ النارُ، ظنَّ القوم أنه قد هلك، وانتهى إلى سمعه ـ وهو في غيابت الجُبِّ ـ قولُ بعضهم لبعض: لقد هلك

---

[33]: الحيوان، 461/4 .

[34]: آل عمران/183.

[35]: الحيوان، 461/4 ـ 462.

[36]: طه: 9 ـ 11.

[37]: الحيوان 462/4.

خالد، فأجابهم ـ من حيث هو في النار ـ كذبتم وربي، ثمَّ خرج من البئر سالماً لم يمسسْه أذىً، فلمّا خرج تعجّب القوم لِما رأوا، ونظروا إليه بذهول، فقال لهم: إذا مُتُّ بعد حين ودفنتموني، عودوا إلى قبري بعد ثلاثة أيام، فإن رأيتم عيراً[38]أبترَ يطوف بقبري، انبشوني، فإني سأخبركم ـ إن فعلتم ـ بما سيكون إلى قيام الساعة.

وبعد أن قُبضَ خالد ودفنوه جاؤوا قبرَه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا عيراً يطوف بالقبر، فأرادوا نبشَه، فانقسم القوم إلى فرقتين، إحداهما أرادت نبشه، والأخرى أبتْ؛ لأنَّ ابنه عبد الله ـ وهو أحد أفراد هذه الفرقة ـ خَشِيَ أنْ يُعَيَّرَ بين العرب بابن المنبوش، فاستجابت الفرقة الأخرى لرغبة الفرقة التي فيها ابنُه، فتركوه وانصرفوا.

كان ذلك قبل مبعث الرسول العربي(ص)، ولمّا بُعِثَ الرسول، وبايعته القبائل، قدمت ابنة خالد بن سنان على النبيّ صلى الله عليه وسلم، لتعلنَ إسلامها، فسُرَّ بها الرسول الكريم، وقال لمن حضر من القوم: هذه ابنة نبيّ ضيّعه قومه، ثمَّ تلا عليها قوله تعالى: قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلدْ، ولم يولدْ، ولم يكن له كفؤاً أحد. فابتسمت ابنة خالدٍ إذ ذاك، وقالت: لقد كان أبي يتلو هذه السورة.

طريقة الجاحظ في معالجة موادّ موضوع النار:

اعتمد الجاحظ في معالجته موضوعَ النار المنهجَ الاستطرادي، الذي يعود للجاحظ نفسه الفضلُ في إرساء قواعده، بل تشييد صرحه في أدبنا العربي. وقد مرَّ بنا أنَّ هذا المنهج إنما:" هو منهجٌ في التأليف، يقوم على الانتقال بالقارىء، من موضوع إلى آخرَ، ومن فكرة أو معنىً، إلى فكرة ومعنىً آخَرَين، من غير أن تكون ثمّةَ رابطة تربط بالضرورة بين الموضوعين أو المعنيين المُنْتَقَلِ بينهما. وقد عالج الجاحظ مفردات موضوع النار معالجة استطراديّة؛ أي معالجة حرّةً لا تُغِلُّ قلَمه. وتجلّت هذه المعالجة الاستطراديّة، أو الحُرّة، في مظهرين رئيسين: أولهما عدم التعقيب على كثير من المفردات بأكثر من كلماتٍ معدوداتٍ، هي إعادة أو تكرار لما كان يقدّم به لهذه المفردات في بعض الأحيان. وثانيهما اتخاذ بعض المفردات المعرفية ذريعةً للاستطراد إلى ذكر ما يتصل بها بسبب، ولو من بعيد.

المظهر الأول: عدم التقديم أو التعقيب على كثير من المفردات بأكثر من كلماتٍ معدوداتٍ:

يصدق ذلك على معالجته الآيات المتعلّقة بنار بني إسرائيلَ، ونار كلٍّ من موسى وعيسى عليهما السلام؛ فقد قدّم للآيات الموسويّة ـ إذا جاز التعبير ـ بقوله: وممّا زاد في تعظيم شأن النار في صدور الناس (الآيات) وعقّب على هذه الآيات بقوله: وكان ذلك ممّا زاد في نباهة النار وقدرها في صدور الناس. وقدّم للآيات الإبراهيميّة بقوله: ومن ذلك نار إبراهيم صلى الله عليه وسلم (الآيات) وعقّب عليها بقوله: وكان ذلك ممّا زاد في نباهة النار وقدرها في صدور الناس.

ومن الواضح أنَّ الجاحظ أراد أن يقول: إنَّ إتيان الله على ذكر هذه النيران في القرآن إنما هو تنويهٌ بها، وقرينةٌ كافيةٌ للدلالة على عِظَم شأنها.

وثمّة جملة من الأحاديث النبوية أثبتها الجاحظ ولم يعقّب عليها بشيء ذي بال؛ من ذلك أنّه أورد قوله (ص) "لا تعذّبوا بعذاب الله" ولم يعقبه بأكثر من قوله: فقد عظّمها كما ترى، فتفهّم– رحمك الله– فقد أراد الله إفهامك.

أمّا قول الرسول(ص) :"**إذا** رقدتَ فأغلق بابك، وخمّر إناءك، وأوك سقاءك[39]، وأطفئ مصباحك،...الخ" فأثبته الجاحظ ولم يعقّب عليه البتّةَ، علماً بأنَّ الجاحظ قد أردف هذا الحديث بقول رجلٍ للرسول: "يا رسول الله إنه لا بدّ لنا من المصابيح، للمرأة النُّفساء، وللمريض، وللحاجة التي قد تعرض" فأجابه الرسول بقوله: "فلا بأس إذاً، فإن المصباح

---

[38]: العِيْر: حمار الوحش، حياة الحيوان الكبرى للدميري: 228/2.

[39]: التخمير: التغطية. والوِكاءُ: هو ما يُشَدُّ به فمُ القِرْبة، أو نحوها.

مطردة للشيطان، مذبّة للهوام[40]، مُدِلَّةٌ على اللصوص". فاعتراف الرسول(ص) للرجل بالحاجة إلى نار المصباح أثناء الليل يتناقض مع أمرهِ بإطفاء المصابيح أثناء النوم. ولو شاء الجاحظ ـ وهو المعروف من بين علماء الكلام، بالقدرة على الانتصار للشيء ونقيضه ـ لاتخذ من هذا التناقض منطلقاً للحديث عن مسوّغ تراجعِ الرسول عمّا طالب به من قبلُ، أو مسوّغ رأيَي الرسول في الموضوع ذاته، على الرغم من تناقضهما؛ إذ لكلٍّ منهما مُوجِباته وشروطه.

المظهر الثاني: اتخاذ بعض المفردات المعرفية ذريعةً للاستطراد إلى ذكر ما يتصل بها ولو من بعيد:

إذا كان الجاحظ قد أحجم عن التعقيب على بعض المفردات المعرفية التي أثبتها، فقد اتخذ من بعضها جسراً عَبَرَ من خلاله إلى الخوض في مسائل أخرى متصلة بموضوع هذه المفردات على نحوٍ ما من أنحاء الاتصال؛ فالآيات الدالة على امتحان الله بني إسرائيل بالنار التي تأكل بعضَ القرابين، وتُحجِمُ عن أكل بعضها الآخر، اتخذها الجاحظ منطلقَهُ للحديث في موضوعٍ بلاغيٍّ، وهو المَجازُ في قوله تعالى: "تأكله النار"، فأشار إلى أنَّ هذه النار ليست حقيقيّة، إنما هي نارٌ مجازيّة، ثمَّ أتى بشواهد شعريّة مختلفة، استُخدِمَ في كلٍّ منها لفظُ "الأكل" استخداماً مجازيّاً. قال الجاحظ:" فإن قلتم: فقد قال الله عزّ وجلّ في الكتاب: الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ، علمنا أن الله عزّ وجلّ، إنما كلمهم بلغتهم. وقد قال أوس بن حَجَر، من الطويل:

فأشرطَ فيها نفسَهُ وهو مُعْصِمٌ ... وألقى بأسبابٍ له وتوكّلا

وقد أَكَلَتْ أظفارُهُ الصّخرَ كلّما ... تَعَايا عليه طولُ مَرْقًى تَوَصَّلا

فجعل النحتَ والتّنقُّصَ أكلاً. وقال خُفافُ بن ندبة : من البسيط

أبا خُراشَةَ أَمَّا كنتَ ذا نَفَرٍ ... فإنَّ قوميَ لم تأكُلْهُمُ الضَّبُعُ

والضّبع: السَّنة. فجعل تَنَقُّصَ الجُدْبِ، والأزمةَ، أكلاً. وقال مِرْداسُ بن أُدَيَّةَ:

وأدّتِ الأرضُ منّي مِثْلَ ما أكلتْ... وقرّبوا لحساب القسطِ أعمالي

وأكلُ الأرضِ لِما صار في بطنها، إحالتُها له إلى جوهرها...الخ[41].

ردُّ الجاحظ على ابنة خالد بن سنان:

إذا صحَّ أنَّ ابن سنان العبسي كان يتلو على الناس سورة الإخلاص كما جاءت في القرآن، فإن القرآن الكريم لا يكون ـ في بعضٍ منه على الأقل ـ جديداً على عرب ما قبل النبوة المحمّدية. الأمر الذي يجعل نظريّة الإعجاز القرآني موضع شكٍّ فيها وريبة، ولذلك لم يشأ الجاحظ أن يغادرَ كلام ابنة خالد بن سنان من غير أن يعقّب عليه بشيءٍ يدلُّ على موقفه من مثل هذا الزعم، فنسب إلى علماء الكلام عدمَ تصديقهم ما قالته ابنة خالد، بذريعة أنَّ خالداً من بُداة الأعراب، وليس من حضرييهم، وهو لذلك لا يصحُّ أن يكون نبيّاً؛ لأنَّ سنّة الله قضت بأن يختار أنبياءه من أهل القرى، وسكان المدن وحسب. ثمَّ استشهد على ذلك بأكثر من شاهد شعري. قال[42]:"والمتكلّمون لا يؤمنون بهذا(أي بنبوّة خالد بن سنان، وتلاوته سورةَ الإخلاص قبل مبعث الرسول)، ويزعمون أنّ خالداً هذا كان أعرابيّاً وبريّاً، من أهل شَرْجٍ وناظرة[43]،

---

[40]: الذّبُّ: الطّردُ. والهوامُّ: كلُّ ذي سُمٍّ قاتلٍ، من حيّاتٍ وغيرها.

[41]: الحيوان: 23/5 ـ 25.

[42]: الحيوان: 477/4 ـ 478.

[43]: ماءان لعبس، معجم البلدان لياقوت الحموي252/5.

ولم يبعث الله نبيّاً قطُّ من الأعراب، ولا من الفدّادين أهل الوبر، وإنما بعثهم من أهل القرى، وسكّان المدن . وقال خُلَيْدُ عَيْنَيْنِ:

وأيُّ نبيٍّ كان في غيرِ قومِه ... وهلْ كانَ حكمُ اللهِ إلّا مع النَّخْلِ

وربما كان جديراً بالذكر أنَّ الجاحظ لم يقطعْ ـ كما هو واضح ـ بعدم صحة ما نسبته ابنة خالد لأبيها، بل لم يقطع بعدم جواز صحّته، لعلّة منافاته قاعدةَ الإعجاز القرآني، الأمرُ الذي قد يشي بعدم اعتراض الجاحظ عليه، وربما دلَّ على تصديقه إياه، وموافقته عليه، على نحوٍ غير مباشر. وممّا يقوّي ما ذهبنا إليه، أنّا وجدناه يصف رأي علماء الكلام فيما قالته ابنة خالد بأنه موقف إيمانيٌّ ممّا زعمته ابنة خالد بن سنان، وليس موقفاً عقليّاً مُدَعَّماً بالحجج والأدلة الدامغة. قال: "والمتكلمون لا يؤمنون بهذا"، أي بما نسبته ابنة خالد لأبيها من تلاوته سورةَ الإخلاص قبل البعثة. وعدمُ إيمان علماء الكلام بتلاوة خالد بن سنان سورةَ الإخلاص ليس دليلاً على عدم تلاوته إياها. فلمَ لم يدحضِ الجاحظ زعم ابنة خالد، أو لمَ لم يحاول دحضَه على الأقل؟ وبعدُ:

فبالاستناد إلى ما أسلفنا من قول، ربما استطعنا أن نلقي ضوءاً على موقع النار من العقائد والديانات بعامّة، وكلٍّ من عقيدتي المجوس والمسلمين بخاصة، بوصفهما الديانتين البارزتين اللتين أولاهما الجاحظ عناية خاصّة بهما، لِما للنار فيهما من أهميّة بالغة، ولِما لها من رمزيّة في الديانة المجوسيّة على وجه الخصوص. وربما بان لنا أيضاً ـ من خلال ما أثبتناه للجاحظ من أقوال في النار ـ أنَّ للنار شأناً في الديانة المجوسيّة، لا تبلغه في الديانة الإسلاميّة؛ ذلك لأن المجوس أوقفوا لها البيوتَ الخاصة بها، وأَجْرُوا على القائمين عليها أرزاقاً وأموالاً طائلة. أمّا في الديانة الإسلاميّة فلا شأن عظيماً لنارٍ فيها غيرِ نار جهنم، وهي نار مجازيّةٌ، استُثْمِرَتْ في الإسلام للزّجر بها عن ارتكاب المعاصي أو الكبائر. أمّا النيران الأخرى التي كان للإسلام منها موقفٌ فهي نيرانٌ دنيويّةٌ طبيعيّة، نوّه الإسلام بها بوصفها مِنّةً لله على خلقه، جليلةَ النّفع، محدودةَ الكُلفة.

وقد دلّنا هذا البحث على أنَّ ثمّة نيراناً أخرى عقديّةً أيضاً، نوّه الإسلامُ بها بوصفها نيراناً مجازيّة امتحن الله بها بني إسرائيل، ليحيا مَنْ حيا منهم عن بيّنة، وليهلكَ من هلك عن بيّنة، أو أثبتَ بها نبوّة سيدنا إبراهيم، لإشفاقها عليه، ورأفتها به، وإضفائها عليه برداً وسلاماً، لا حرقاً والتهاماً، أو آنسَ بها موسى رشداً إذ تجلّى الله له فيها على جبل الطّور، فآنسَ بها رُشداً، فقصدها ليأتي قومَه منها بشهابٍ قَبَسٍ، أو بخبر.

وقد قادنا هذا البحث أيضاً إلى تبيّن طريقتين للجاحظ في معالجة المفردات التي أثبتها، ترجّحتا بين عدم التعقيب على كثير منها بأكثر من كلمات معدودات، جعل يكرّرها عقبَ أكثر من مفردة، والتعقيب على بعضها الآخر بكلامٍ يجلّيها حيناً، ويستثمرها استثماراً تجلّى في اتخاذها ذريعةً للاستطراد إلى ذكر غيرها من مفردات أخرى، تبعثُ أو تُحرّضُ على التساؤل أكثرَ ممّا تقدّم إجابات.

مصادر البحث ومراجعه:

1: القرآن الكريم.

2: تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري ت370 هـ، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي ببيروت، الطبعة الأولى 2001م.

3: حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، د أمجد الطرابلسي، دار الفتح بدمشق، الطبعة الخامسة 1971.

4: حياة الحيوان الكبرى للدميري، دار الكتب العلميّة ببيروت، الطبعة الثانية 1424هـ.

5: الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي ببيروت. الطبعة الثالثة، 1969.

6:ضحى الإسلام، د أحمد أمين، دار الكتاب العربي ببيروت

7:المصادر الأدبية واللغوية، د عز الدين إسماعيل، دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الثانية 11980.

8: مصادر التراث العربي في الأدب واللغة والتراجم، د يوسف زردة، مطبوعات جامعة تشرين، 2009.

9: المعتزلة والفكر الحر، د عادل العوا، دار الأهالي للطباعة والنشر بدمشق 1987.

10:معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط 1995/2.

Research and review sources:

1: Al Quouran Al Karim.

2: Language Refinement, Abu Mansour Al-Azhari, T. 370 AH, Edited by Muhammad Awad Mireb, House of Revival of Arab Heritage in Beirut, First Edition 2001 AD

3: Haraket Alta'lif for the Arabs in Language and Literature, Dr. Amjad Al-Trabelsi, Dar Al-Fath in Damascus, Fifth Edition 1971.

4: The Life of the Al Hayawan of Al-Damiri, House of Scientific Books in Beirut, second edition, 1424 AH.

5: Al Hayawan by Al-Jahiz, edited by Abd al-Salam Haroun, House of Revival of Arab Heritage in Beirut. Third edition, 1969.

6: Doha Al Islam, Dr. Ahmed Amin, the Arab Book House in Beirut.

7: Literary and Linguistic Sources, Dr. Ezz El-Din Ismail, Dar Al Ma'arif in Cairo, second edition 11980.

8: Sources of Arab Heritage in Literature, Language and Translations, Dr. Youssef Zardeh, Tishreen University Press, 2009.

9: Mu'tazila and Free Thought, Dr. Adel Al-Awa, Dar Al-Ahali for Printing and Publishing in Damascus 1987.

10: Mujam al-Buldan, Yaqout al-Hamwi, Dar Sader, Beirut, Edition 2/1995.